# الخصائص الفنية للوصايا والحِكَم والأمثال عند حكماء العرب قبل الإسلام

إعداد

الآء محمد عزب

**الملخص**

الخصائص الفنية للوصايا والحَكَم والأمثال: الوصايا

الوصية بمعنى النصح والإرشاد والتوجيه، وهي قول بليغ مؤثر، ويتضمن حثًّا على سلوك طيب نافع، حبًا فيمن توجه إليه الوصية، ورغبة في رفعة شأنه وجلب الخير له. وعادة تكون من أولياء الأمور وبخاصة الأب والأم لأبنائهما عند حلول الشدائد، أو حدوث الأزمات أو الإحساس بدنو الفراق، وهي نتيجة الخبرة الطويلة والملاحظة الدقيقة، والعقل الواعي والتفكير السليم ويدفع إليها المودة الصادقة والحب العميق،وتروى هذه الوصايا عادة على ألسنة طوائف من الحكماء والمعمرين، الذين عرفوا بكثرة تجاربهم وخبرتهم في الحياة، من أمثال: ذي الإصبع العدواني، وزهير بن جناب الكلبي، وعامر بن الظرب العدواني،وتكشف الوصية عن أن الجاهلين كانوا يعنون بتنميق أسلوبهم في الوصايا حتى يكون له وقع جميل، ويكون هذا عاملاً مساعداً على الإصغاء إلى الوصية ثم التأثر بها، ونرى الوصية تلتزم السجع، وتعني بالازدواج، والطباق، والجناس أما السجع فواضح في الوصية.

الحكمة صوت العقل لأن الحكمة قول موجز يقوم علي فكرة سديدة وتكون بعد تأمل وموازنة بين الامور واستخلاص العبرة منها ولذلك فهي تعبر عن الرأي والعقل.

نماذج من حكم العرب في الجاهلية:

"مصارع الرجال تحت بروق الطمع": فيها دعوة إلى القناعة فأن الطمع يقتل صاحبه.

"رب ملوم لا ذنب له": وهذه دعوة إلى التحقق من الأمر قبل توجيه اللوم للبريء.

"أدب المرء خير من ذهبه": معناها ان قيمة الإنسان بأدبه لا بماله.

والمثل فهو قول يشبه مضربه بمورده فهو يقصد به تشبيه الحال التي حكي فيها بالحال التي قيل بسببها، ولذلك يحكى المثل بلفظه كما هو بدون تغيير مهما كان نوع الخطاب أو نسق الكلام.ويجتمع في المثل إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسْنُ التشبيه.

## Abstract

Technical Characteristics of Wills, Rulings, and Proverbs: Commandments

The will in the sense of advice, guidance and direction, and it is an eloquent and influential saying, and it includes an urge to behave in a good and beneficial manner, out of love for the one to whom the will is directed, and a desire to elevate his status and bring gUsually they are parents, especially the father and mother of their children when adversity strikes, crises occur, or a feeling of separation is imminent, and it is the result of long experience, careful observation, conscious mind and sound thinking, and prompts sincere affection and deep love. Those who were known for their many experiences and expertise in life, such as: Dhul-Asaba Al-Adwani, Zuhair bin Janab Al-Kalbi, and Amer bin Al-Dharb Al-Adwani. Then affected by it, and we see the commandment adheres to the assonance, and it means double, counterpoint, and alliteration. As for the assonance, it is clear in the commandment.ood to him.Wisdom is the voice of reason, because wisdom is a brief statement that is based on a sound idea and is after contemplation and balancing between matters and drawing lessons from them. Therefore, it expresses opinion and reason.

Examples of Arab rule in the pre-Islamic era:

“Men’s Wrestlers Under the Lightning of Greed”: It contains an invitation to contentment, for greed kills its owner.
“A blameworthy Lord has no fault” This is a call to verify the matter before blaming the innocent.

**المقدمة**

الحمد لله الذي علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، واختار العربية لتكون خير وعاء لأسمى الكلام، واصطفى النبي العربي العدنان؛ ليبلغ عن ربه شريعة التوحيد، والعدل، والرحمة، والفضـــل، والإيمـــان، والصلاة والسلام على خير خلقه وسيدهم أجمعين الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وكان أفصح مـــن نطق بالضاد، وأبلغ من تحدث بالعربية التي أخبر أنه يحبها لثلاث: لكونها لغة قومه، ولكونها لغة القرآن الكريم، ولكونها لغة أهل الجنان

يتخاطبون بها فيما بينهم، وقد حفهم رضا من ربهم ورضوان.

أما بعد ...

فإن هذه الدراسة تتناول الخصائص الفنية للنثر عند حكام العرب قبل الإسلام، وحكام العرب هم فئة من الناس امتازوا بصفات؛ أهمها: الذكاء، والعلم، وسعة المعرفة، والاطلاع، والإحاطة بأحوال العرب، وتاريخهم، وأيامهم، وأحسابهم، وأنسابهم ؛ ولذلك لجأ إليهم الناس للنظر فيما يقع بينهم من خلافات، ومشاحنات، ومنافرات؛ فكانوا يجلسون للحكم في هذه القضايا، وكان لكل قبيلة حكم يتحاكمون إليه؛ إذ لم يكن هناك أيُّ نظام قضائي يتيح للمتخاصمين الفصل بينهما فيما يختصمان من أجله؛ وذلك بسبب طبيعة الحياة الجاهلية التي تعتمد على التنقل طلبًا للماء والمرعي.

وبالإضافة لما كان يمتاز به الحكام من ذكاء، ونبل، وكرم، وزعامة؛ فقد برز من بينهم عدد من الخطباء والحكماء الذين تحمل كتب الأدب والتاريخ آثارهم الأدبية والنثرية؛ وهذا ما تقوم عليه دراسة البحث من خلال التعرف على حكام العرب، ثم دراسة خصائصهم النثرية دراسة موضوعية وفنية، وأهم ما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع هو أن الباحثين المحدثين لم يتطرقوا لهذه الدراسة بشكل مستقل، وإنما تطرق بعضهم إلى بعض جوانبها، كما فعلت (سهام الفريح) في كتابها (الوصايا في

الأدب العربي القديم) الذي يدل عنوانه على اهتمامه بجانب واحد من جوانب أدب الحكام النثري، وهو الوصايا، كما أنه لا يختص بالنظر في وصايا الحكام دون غيرهم؛ بل تناول هذا الفن من فنون الأدب العربي القديم بصورة عامة، ومن هنا فإن سبب اختياري هذا البحث هو أن يمثل أول دراسة تختص بالنظر في دراسة الخصائص النثرية لحكام العرب- دراسة فنية؛ فقد جاءت هذه الدراسة من أجل تسليط الضوء على هذا النثر الذي لا يقل أهمية، وإن تفوق في جانبه الخطابي علي شعر الحكام العرب، كما تهدف هذه الدراسة إلى إبراز أهم القضايا التي تناولوها في نثرهم، وإلى تبيين الخصائص الفنية التي امتاز بها نثرهم: خطابة، ومنافرة، ووصايا، وحكمًا على وجه الخصوص.

وقد اتبعت- في بحثي هذا- المنهج التحليلي؛ إذ اعتمدت عليه في تحليل كل فن نثري من فنونهم المتنوعة، ومعرفة خصائصها الفنية، هذا إلى جانب الإفادة من المنهج التاريخي في تتبع الأحداث التي دارت حولها النصوص النثرية .

وقد كان من أبرز مصادر هذه الدراسة: كتاب (جمهرة خطب العرب) لأحمد زكي صفوت، وقد اعتمدت عليه في بعض المنافرات، ولا سيما منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، وما جاء فيها، واعتمدت عليه في كثير من خطب الحكام، كما اعتمدت على كتاب (مجمع الأمثال) للميداني؛ وذلك في جمع الأمثال والحكم، وكذا كتاب (جمهرة الأمثال) للعسكري، كما اعتمدت على كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ، وكتاب (الأغاني) للأصفهاني، وغيرهما في معرفة النصوص، وما دار حولها من أحداث تاريخية ذات طابع أدبي، والحق أن الباحث في الخصائص الفنية للنثر- عند حكام العرب- يواجه مشكلة تكمن في ضياع كثير من النصوص النثرية؛ مما جعل جمع ما بقي منها في الكتب المتفرقة أمرًا غير يسيـــر، بيد أنني قد حاولت جمعها من مظانها في كتب التاريخ والأدب. وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة، وثبت بالمصادر والمراجع مع ختام ذلك بفهرس الموضوعات، وفي التمهيد تحدثت فيه عن التعريف بحكام العرب قبل الإسلام، ثم

زعامة القبائل، وما تمثله من شرفٍ، وسيادةٍ، ورئاسةٍ، وقيادة الجيوش، والقوافل التجارية، والوفادة على الملوك، ثم تحدثت فيه عن مكانة حكام العرب في الحياة الجاهلية، وذكرت فيه المكانة الدينية، والأدبية، وأخيرًا تحدثت فيه عن الترجمة لمجموعة من أهم حكام العرب.

أما الفصل الأول- فقد تحدثت فيه من الخصائص الفنية للخطابة عند حكام العرب، وقد ذكرت فيه مجموعة من الخطب التي كانوا يلقونها لأغراض مختلفة: من التهنئة، والتعزية، والحض على القتال، ثم تناولت بعد ذلك بنية النص النثري في الخطابة، وما يتسم به من اللغة، والملامح الأسلوبية، والألوان البديعية.

والفصل الثاني- جاء في الخصائص الفنية للمنافرات عند حكام العرب، وتحدثت فيه عن مجموعة من المنافرات التي كانوا يلقونها للتنافر فيما بينهم، ثم تناولت- بعد ذلك- ما يميزها من خصائص أسلوبية في المضمون، واللغة، والتصوير الفني.

والفصل الثالث- تحدثت فيه عن الخصائص الفنية للوصايا، والحِكَم، والأمثال عند حكام العرب، وقد تناولت فيه مجموعة من الوصايا التي كانوا يوجهونها لأبنائهم، أو لقبائلهم؛ وذلك حينما يحس أحدهم بدنو أجله؛ فيلقي وصيته التي تخاطب شغاف القلوب المتطلعة للنصح، وتلمس عمق التجربة النفسية الطويلة، وتستقي من جذورها، وهي وصايا، وحكم، وأمثال- في معظمها- تعبر عن تجربتهم التي مروا بها أثناء تلك الحياة الطويلة المليئة بالأحداث، والمتخمة بالتجارب العامة والخاصة، وما يكتنفها من فلسفة وفكر وتأمل في أحوال الناس في عصر فيما قبل الإسلام.

وقد تلت تلك الفصول خاتمة بينت فيها أهم النتائج التي توصلت اليها، وأعقبتها بثبت المصادر والمراجع، ثم أخيرًا جاء فهرس الموضوعات، وأتمنى أن أكون قد وفقت في تقديم شيء مما كنت أصبو إليه من دراستي للأدب العربي مدفوعة بحب هذه الأمة العظيمة، وحب لغتها وأدبها وتراثها حبا متأصلًا في النفس والعقل، ومدركة بأن تراثها يستحق مني أكثر مما قدمت؛ فقد قدمت جهد المقل دون ادعاء الكمال الذى هو لله وحده، غير أنني أرجو أن لا يفوتني أجر المجتهد فأنال أجرين إن

أصبت، وهذا غاية الرجاء والأمل، أو أنال أجرًا واحدًا إن أخطأت، وجَلَّ من لا يخطئ.

الخصائص الفنية للوصايا والحكم والأمثال عند حكام العرب قبل الإسلام:.

**أولا- الوصـــايا:**

الوصية بمعنى النصح والإرشاد والتوجيه، وهي قول بليغ مؤثر، ويتضمن حثًّا على سلوك طيب نافع، حبًا فيمن توجه إليه الوصية، ورغبة في رفعة شأنه وجلب الخير له. وعادة تكون من أولياء الأمور وبخاصة الأب والأم

لأبنائهما عند حلول الشدائد، أو حدوث الأزمات أو الإحساس بدنو الفراق، وهي نتيجة الخبرة الطويلة والملاحظة الدقيقة، والعقل الواعي والتفكير السليم ويدفع إليها المودة الصادقة والحب العميق.

والوصايا هي التي يوصيك بهِا الشّخص لتفعلها وتكون على عاتِقُك، بحيث أنّ الشخص الذي أوصاك لا يستطيع فعلهُ بسبب مرض مزمن قد يؤدّي إلى الموت، أو أنّ يكتب ورقة وصيّة مثلاً بعد موتهِ يوصّي بأن يفعلَ الموصي بهِ شيئاً كتوزيع الأموال، والتبرُّع، حسب ما هي الوصيّة بحيث يصبح الموصي بهِ هو المسؤول عن الشيء الذي أوصى بهِ المتوفِّي، ويجب عليهِ أن يفعلها. وتروى هذه الوصايا عادة على ألسنة طوائف من الحكماء والمعمرين، الذين عرفوا بكثرة تجاربهم وخبرتهم في الحياة، من أمثال: ذي الإصبع العدواني، وزهير بن جناب الكلبي، وعامر بن الظرب العدواني.

وما وصل إلينا من تلك الوصايا بعضه موجه إلى الأبناء والبنات، وبعضه الآخر موجه إلى أفراد من القبيلة. أما من حيث الموضوع والمضمون؛ فيمكن تقسيم الوصايا إلى نوعين:

**الأول: وصايا اجتماعيةَ**

وهي كالوصايا المتعلقة بالزواج، والمال، والصداقة، والعناية بالخيل وإكرامها، ومكارم الأخلاق كتهذيب اللسان، وتربية النفس، والحث على الصدق، والبذل والجود.. ومن شواهدها وصية ذي الإصبع العدواني – لما احتضر – لابنه أسيد.

الثاني: وصايا سياسية

وهي تكون بين الراعي والرعية، والدعوة إلى الحرب، والدعوة إلى السلم والتحذير من التنازع. والطابع العام للوصايا هو الأسلوب المرسل، الذي يترك فيه الموصي نفسه على سجيتها، من دون تنميق أو زخرفة، مؤثراً وضوح العبارات، ورشاقة التراكيب، وقصر الجمل بما يحقق المناسبة بين المعنى واللفظ وطبيعة المقام الذي تقال فيه الوصية.

وحفلت الحضارة العربية بالوصايا لأسباب؛ من أهمها: طبيعة الحياة العربية القائمة على التنقل والارتحال؛ مما يستدعي أن يترك المرتحل للمقيم ما يبلغه بارتحاله، ومن معاني الرحيل الملموسة مفارقة الدنيا بسبب الموت الذي ينتظر كل حي؛ فالوصايا تكون– في العادة– ثمرة العمر، وخلاصة التجربة في الحياة، يقدمها المرء عند إحساسه بقرب الافتراق، وترك الأهل والجماعة، وتدور معظم الوصايا حول الرضى والقبول بالأمر الواقع، والخضوع لسنن الحياة، وارادة الخالق، وتقديم تجارب العمر؛ لكي يفيد منها الأبناء، أو من أراد الموصي تقديم وصيته إليهم. وقد اهتم العرب بهذا (الفن)؛ فألفوا فيه الكتب والفصول والأبواب على نحو ما.

والناظر في تاريخ العرب وأدبهم في العصر الجاهلي يلاحظ كثرة الوصايا بسبب النظام الاجتماعي القائم على وحدة القبيلة التي تحرص على وحدة الدم، وتحتفظ بالسيادة والاحترام لذوي الأسنان والتجربة؛ فإن هؤلاء المجربين سوف يلجؤون إلى توصية أبناء قبيلتهم، أو أحد أبنائهم، وقد لا تكون مناسبة الوصية الموت

وحده، وإنما قد يوصون عند التأهب لخوض معركة، أو الدخول في حلف، أو الارتحال من مكان لآخر[١].

إن من لوازم من يريد تقديم النصح والمشورة التقدم في السن الذي يعني طول التجربة، وعراقة الخبرة في أمور الحياة، بالإضافة لسلامة التفكير، وسداد الرأي، وهي أمور نجدها لدى حكام العرب؛ فقد كانوا من ذوي التجربة المتراكمة عبر سنوات حياتهم التي تعدت المائة والمائتين لدى بعضهم؛ وذلك من مثل: الذين عرف عنهم رجاحة العقل، وحسن التصرف في كل ما يعرض لهم ولقومهم من مواقف؛ ولذا فلا بد من أن تنعكس هذه التجارب الطويلة في وصاياهم لأقوامهم وابنائهم.

وهو ما وجدته عند بحثي في الحديث عن مجموعة من الوصايا عند حكام العرب قبل الاسلام؛ إذ وجدت عددا من تلك الوصايا التي إما ان تكون موجهة إلى القبيلة كلها، وإما أن تكون موجهة إلى أبناء الموصى، أو إلى أحدهم، ويكون الابن الأكبر في غالب الأحيان؛ فمن الوصايا الموجهة الى الجماعة وصية عامر بن الظرب العدواني لقومه حين كبر، وخافوا عليه أن يموت؛ "فاجتمعوا إليه، وقالوا: إنك سيدنا وقائلنا وشريفنا؛ فاجعل لنا شريفًا وسيدًا وقائلاً بعدك؛ فقال: "يا معشر عدوان، كلفتموني بغيًا إن كنتم شرفتموني فإني أريتكم ذلك من نفسى؛ فإني لكم مثلى، افهموا ما أقول لكم: إنه من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له، وكان الباطل أولى به، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل، ولم يزل الباطل ينفر من الحق، يا معشر عدوان: لا تشمتوا بالذلة، ولا تفرحوا بالعزة؛ فبكل عيش يعيش الفقير مع الغني، ومن يُرِ يومًا يُرِ به، وأعدوا لكل امرئ جوابه، إن مع السفاهة الندامة، والعقوبة نكال، وفيها ذمامة، ولليد العليا العاقبة، والقود راحة، لا لك ولا عليك، وإذا

١- سهام الفريح، الوصايا في الأدب العربي القديم: مكتبة المعلا- الكويت١٩٨٨م، ط١، ص١٨.

شنت وجدت مثلك، إن عليك كما أن لك، وللكثرة الرغب، وللصبر الغلبة، ومن طلب شيئا وجده، وإن لم يجده يوشك أن يقع قريبا منه"[١].

ومن الأمور التي يجدر ملاحظتها في هذه الوصية حرص قبيلة عامر بن الظرب على الاستفادة من خبرته وتجربته الطويلة في الحياة، وتقديرهم واحترامهم لهذا السيد الحكيم، وإدراكهم لعظم الفائدة التي يجنونها من مثله؛ ولذا فقد جاءت المبادرة بطلب النصيحة، والتوجيه منهم. أما الوصية؛ فإنها تتناول جوانب الحياة المختلفة، وتركز على النواحي الإيجابية التي ينبغي أن تسود في العلاقات القائمة بين الناس، وتؤكد على تعزيز القيم السامية، وهي ملاحظات نجدها في معظم الوصايا؛ لأنها من المسائل البديهية التي يعتز بها المجتمع العربي.

ومثل هذه المعاني تتكرر بصورة أخرى في وصية أبي طالب بن عبد المطلب عندما أحس بدنو أجله؛ فجمع وجوه قريش، وأوصاهم ووعظهم وذكرهم بما يحظون من شرف ورفعة بين العرب، وطلب إليهم مواصلة الاهتمام ببيت الله الحرام، وتعظيمه وإجلاله، وصلة الرحم، وترك الظلم؛ لأن عاقبته الهلاك والدمار، وحثهم على التشبث بمكارم الأخلاق؛ من مثل: الكرم، والصدق، والأمانة، ثم توجه إليهم طالبًا مؤازرة النبي- صلي الله عليه وسلم- وبين لهم ما يتحلى به من كريم السجايا، وعظيم الخصال، ودعاهم إلى اتباعه ونصرته قبل أن يسبقهم الآخرون إلى هذا الشرف، وتفوتهم هذه الفرصة؛ وذلك حيث يقول: "يا معشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدام الشجاع، الواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبًا إلا أحرزتموه، ولا شرفًا إلا أدركتموه؛ فلكم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب، وعلى حربكم ألب، وإني أوصيكم بتعظيم هذه البنية (يعني الكعبة)؛ فإن فيها مرضاة للرب، وقوامًا للمعاش، وثباتًا للوطأة، صلوا أرحامكم؛ فإن في صلة الرحم منساة في

---

١- الميداني، مجمع الأمثال: ٣٧٤/٢، والألوسي: بلوغ الارب:٣١٨/١-٣١٩، وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب:١٢٣/١و١٢٤، والذمامة: العهد والحرمة، والقود: القصاص.

الأجل، وزيادة في العدد، اتركوا البغي والعقوق؛ ففيها هلكت القرون قبلكم، أجيبوا الداعي، واعطوا السائل؛ فإن فيهما شرف الحياة والممات، وعليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة؛ فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام، وإني أوصيكم بمحمد خيرًا؛ فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاءنا بأمرٍ قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الأطراف، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره؛ فخاض بهم غمرات الموت، وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابًا، ودورها خرابًا، وضعفاؤها أربابًا، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصفت له بلادها، وأعطته قيادها، يا معشر قريش: كونوا له ولاة، ولحزبه حماة. والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ بهديه أحد إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة، وفي أجلي تأخير لكففتُ عنه الهزاهز، ولدافعت عنه الدواهي"(١).

ومن أمثلة الوصايا الموجهة إلى القوم، أو القبيلة- أيضا- وصية أكثم بن صيفي إلى قومه بني تميم، وهي تنبئ عن مدى ما امتلك صاحبها من الحكمة والتجربة والعقل، وقد بدأها بتنبه قومه إلى ضرورة الإصغاء لنصحه، والتزام ما يأمرهم به؛ لأنه يراهم أحق الناس بالانتفاع بحكمته، ثم راح يبين لهم الفضائل، ويحثهم على السعي إلى المكارم، ويرغبهم بممارسة الشورى في أمور حياتهم، وعدم استئثار فرد، أو مجموعة بالرأي دون الآخرين، ويحذرهم من بعض الخصال والتصرفات التي تحط من قدر صاحبها؛ من مثل: الطمع، والحسد، والنميمة، و الوصية- بشكل عام- تمثل صورة العربي (النموذج) في العصر الجاهلي، وأصالته

---

١- الألوسي، بلوغ الأرب:١/٣٢٧و٣٢٨، وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب:١/١٦١و١٦٢، وألب: التدبير على العدو من حيث لا يعلم، ومنسأة: فسحة، وامتداد (من النسيء، وهو التأخير أو التأجيل)، والجنان: القلب، والشنان: البغض والكراهية، وأرباب: سادة، والهزاهز: تحريك البلايا والحروب للناس.

التي ترتكز على مكارم الأخلاق، ومنها: التواضع، والكرم، والتحلي بالصبر، واعتماد العقل، وحسن التصرف، والحزم، والشجاعة، والسماحة، والحلم، إلى آخر ما هنالك من الأخلاق والسجايا الطيبة التي تعتز بها الأمم، وهي منظومة القيم التي تعارفها الناس، وتناقلوها عبر أجيالهم المختلفة؛ إذ يقول في وصيته لقومه: "يا بني تميم: لا يفوتكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي، إن بين حيزومي وصدري لبحرًا من الكلم لا أجد له مواقع غير استماعكم، ولا مقار إلا قلوبكم؛ فتلقوها بأسماع صاغية، وقلوب واعية، تحمدوا عواقبها، إن الهوى يقظان، والعقل راقد، والشهوات مطلقة، والحزم معقول، والنفس مهملة، والرؤية مقيدة، ومن يجهل التواني، ويترك الروية يتلف الحزم، ولن يعدم المشاور مرشدًا، والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل، من سَمَّعَ سُمِّعَ به، ومصارع الألباب تحت ظلال الطمع، ولو اعتبرتم مواقع المحن ما وجدت إلا في مقاتل الكرام، وعلى الاعتبار طريق الرشاد، ومن سلك الجدد أمن العثار، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه، ويشغل فكره، ويُورِي غيظَهُ، ولا يجاوز ضُرَّهُ نفسَهُ، يا بني تميم: الصبر على جرع الحلم أعذب من جني ثمرة الندم، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف الذم، وكلم اللسان أنكى من كلم الحسام، والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم؛ فإذا نجمت فهي سبع محرب، أو نار تلهب، ولكل خافية مختفٍ، ورأي الناصح اللبيب دليل لا يجور، ونفاذ الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب"(١).

وتمتاز الوصايا الموجهة إلى الأبناء بشيء من الخصوصية لما فيها من تركيز عاطفى يحكم علاقة الوالد المشرف على الهلاك بولده الذي يمثل امتدادًا لحياة

---

١- العسكري، جمهرة الأمثال:٢/٢٥٦و٢٥٧، والتوحيدي، البصائر والذخائر:١/١٥٤و١٥٥، والألوسي، بلوغ الأرب: ج٣ ،١٧٢ وأحمد زكى صفوت، جمهرة خطب العرب:١/١٣٤و١٣٥، والحيزوم: وسط الصدر، ومعقول: محبوس ومقيد، ومداحض: جمع مدحضة، وهي المزلة، والجدد: الأرض المستوية، ويوري: يوقد.

هذا الوالد، وأملًا في تحقيق ما لم يتمكن الوالد من تحقيقه في حياته، كما تمثل التزامًا من جهة الابن بوجوب الاستماع لوصية أبيه، وتوطين نفسه على إمضائها، وقد يطلب الوالد من ابنه موثقًا وعهدًا يطمئن به إلى صدق نية الابن في احترام وصيته، أو يلجأ الابن من تلقاء نفسه، وتحت تأثير موقف الوداع المؤثر إلى التأكيد بأغلظ الأيمان والمواثيق على إنفاذ وصية والده، هذا من الناحية النفسية أو العاطفية، أما من الناحية الموضوعية؛ فإننا نلحظ شيئًا من الخصوصية في وصايا الآباء للأبناء تتمثل في التركيز على بعض الأمور الشخصية؛ من مثل: تقسيم الأموال، أو الزواج، أو كيفية التعامل مع فئة أو جماعة من الناس.

ومن وصايا حكام العرب إلى أبنائهم وصية ذي الإصبع العدواني لابنه أُسَيد؛ إذ يقول فيها: "يا بني إن أباك قد فني وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته؛ فاحفظ عني، أَلِنْ جَانِبَكَ لقَومِكَ يُحِبّوكَ، وتَوَاضَعْ لَهمْ يَرفَعُوكَ، وابْسُطْ لهم وجْهَكَ يُطِيعُوكَ، ولَا تَسْتَأْثِر عَلَيهِم بِشَيءٍ يُسَوِّدُوكَ، وأكْرِمْ صِغَارَهُم كمَا تُكْرِمْ كِبَارَهُم يُكْرِمْكَ كِبَارُهُم، ويَكْبُرُ على مَوَدّتِك صِغَارُهم! واسْمَحْ بمَالِكَ، واحْمِ حَرِيمَك، وأعْزِزْ جَارَكَ، وأعِنْ منِ اسْتعانَ بك، وأكْرِمْ ضَيفَكَ، وأسْرِع النّهْضَةَ فِي الصّرِيخِ؛ فإنّ لك أجلًا لا يعدُوكَ! وصُنْ وجْهَكَ عن مسْأَلَةِ أحَدٍ شَيئًا؛ فبِذلكَ يُتَمّ سُؤْدُدُكَ!"(١).

إننا حين نقرأ هذه الطائفة من وصايا حكام العرب لأقوامهم وأبنائهم نجد قاسمًا مشتركًا في القيم التي يحرص عليها العربي بشكل عام؛ مما يعني استقرار هذه التوجهات؛ حتى غدت قيمًا واجبة الاحترام والاتباع، كما يبين أخلاقيات ذلك المجتمع الجاهلي، واهتمامه بالأسس الاجتماعية والروحية التي تقوم عليها حياة البشر عمومًا، وحياة العرب في مجتمعهم ذاك خصوصًا، وهي: الحرص على الجماعة، ووحدة القبيلة، وصيانة الشرف، والدفاع عنه بكل السبل، وبذل المال بسخاء، والشجاعة، والنجدة، والدعوة إلى الحلم، والتسامح والعفو، وإغاثة اللهفان،

١- ديوان ذي الإصبع: ص٧١و٧٢.

وصون الأمانة، واجتناب الخيانة، ومصاحبة الأخيار، واحترام علاقة المصاهرة بالبحث عن الأكفاء، والنهي عن كل ما يخرم المروءة، والشرف، والكرامة؛ من مثل: الفحش، والسفه، والطيش، والبغي، والقسوة، وأكل الحقوق.

ومن أهم الخصائص الأسلوبية للوصايا: استهلالها بمخاطبة الموصي إليه؛ فإن كان أحد الأبناء، وجدنا الوصية تبدأ بعبارة: (يا بُنَيّ)، وكذلك إن كانوا مجموعة من الأبناء؛ فإنها تبدأ بعبارة: (يا بَنِيّ)، ومن هذه الوصايا وصية ذي الإصبع العدواني إلى ابنه أُسيد التي يقول فيها: "يا بُني، إن أباك قد فني، وهو حي....إلخ"(١)، أما الوصايا الموجهة إلى مجموعة الأبناء؛ فمنها وصية غيلان بن سلمة إلى أبنائه، إذ يقول في بدايتها: "يا بني، قد أحسنت خدمة أموالكم....إلخ"(٢)، وهناك بعض الوصايا الموجهة إلى القوم، أو العشيرة، وهي تبدأ- عادة- بقول الموصي: يا (بَنِي فلان)، أو يا (معشر كذا)، ومن أمثلة ذلك: مخاطبة أكثم بن صيفي قومه حين أوصاهم؛ فقال: "يا بني تميم، لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي....إلخ"(٣)، وكذلك فعل عامر بن الظرب العدواني في وصيته لقومه؛ إذ يقول: "يا معشر عدوان، كلفتموني بغيًا....إلخ"(٤)، وأبو طالب بن عبد المطلب حين جمع وجوه قريش لما أحس بدنو أجله، فأوصاهم، وافتتح وصيته بقوله: "يا معشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه...إلخ"(٥)، وقبل الدخول في موضوع الوصية، يمهد الموصي- عادة- بكلام يشتمل على بعض الحكمة التي اكتسبها من طول التجربة، وسعة الخبرة في الحياة، وأكثر ما يكون ذلك في الوصايا الموجهة إلى الجماعة، فمن ذلك قول أكثم بن صيفي في وصيته إلى قومه: "لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي، إن بين حيزومي وصدري لكلاماً لا أجد له مواقع إلا أسماعكم ولا مقار إلا قلوبكم؛ فتلقوه بأسماع

---

١- الأصفهاني، الأغاني ٣/٩٥.

٢- المصدر السابق: ١٣/٢٢٨.

٣- التوحيدي، البصائر والذخائر:١/ ١٥٤.

٤- الألوسي، بلوغ الأرب:١/٣١٨.

٥- الألوسي، بلوغ الأرب:١/٣٢٧.

مصغية، وقلوب واعية، تحمدوا مغبته"(١)، ومنه كذلك وصية أبي طالب السالفة الذكر؛ فبعد أن استهلها بتوجيه كلامه إلى (معشر قريش) قال: "أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدام الشجاع، الواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبًا إلا أحرزتموه، ولا شرفًا إلا أدركتموه....إلخ"(٢).

ولا تختلف الوصايا إلى الأبناء عن تلك الموجهة إلى الجماعة الكثيرة؛ بل إنها تكاد تكون مشابهة لها لولا وجود فرق بسيط يتمثل في طول التوطئة، أو التمهيد؛ فالموصي للجماعة يمهد لموضوع وصيته بشيء من الحكمة؛ وذلك كما فعل أكثم بن صيفي، أو بكلام يحمل معنى الإشادة، والمديح، والتذكير بما للقوم من فضائل، وهذا ما فعله أبو طالب، أما وصايا الآباء للأبناء؛ فبالرغم من احتوائها على مثل هذا التمهيد إلا أنه قد جاء قصيرًا ومختصرًا لا يتعدى الجملتين، أو الثلاث قبل الولوج في موضوع الوصية، ومن ذلك ما جاء في وصية ذي الإصبع العدواني لابنه أسيد؛ فبعد أن خاطبه بقوله: (يا بني) قال له: "إن أباك قد فني وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته؛ فاحفظ عني ...إلخ"(٣)،

وهكذا قمتُ بتفصيل الحديث عن المقدمة التي تشتمل على مخاطبة الموصي للسامعين بعبارات: (يا بُنَيّ)، أو (يا بَنِي فلان)، أو (يا معشر كذا)، كما قمتُ بالحديث عن التوطئة المناسبة للوصية، وهي قد تطول، أو تقصر، وينتقل فيها الموصي إلى موضوع الوصية الرئيس الذي يود التركيز عليه؛ فيبين لمن يوصي له (أو لهم) ما يريد فعله، وما ينبغي التحلي به من صفات وشمائل؛ فقد أوصى أبو طالب قومه: "بتعظيم هذه البنية- يعني الكعبة- فإن فيها مرضاة للرب"(٤)، وبصلة

---

١- التوحيدي، البصائر والذخائر: ١٥٤/١.

٢- الألوسي، بلوغ الأرب: ٣٢٧/١.

٣- الأصفهاني، الأغاني: ٩٥/٣.

٤- الألوسي، بلوغ الأرب: ٣٢٧/١.

الرحم: "صلوا أرحامكم؛ فإن في صلة الرحم منسأة في الأجل، وزيادة في العدد"(١)، وبترك البغي، وإجابة الداعي وإعطاء السائل، وصدق الحديث، وأداء الأمانة. ثم خصص جانبًا مهمًّا من وصيته لحث قومه على إكرام النبي-صلي الله عليه وسلم- واتباع دعوته؛ فقال: "وإني أوصيكم بمحمد خيرًا؛ فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب....إلخ"(٢)، وقد سار ذو الإصبع على النهج السابق؛ فبعد أن خاطب ابنه، ومهد لوصيته نفذ إلى الحديث عما يبتغيه من وصيته لابنه؛ فقال:"فاحفظ عني، ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك... إلى آخر الوصية"(٣)

أما خاتمة الوصية؛ فقد أظهر البحث وجود سبيلين للوصول إليها؛ أولهما- سبيل سلكه الموصون إلى الجماعة، وهو يقوم على إنهاء الوصية دون أية إشارة تنبئ المستمع، أو القارئ بانتهائها، وإن من يتمعن في الوصايا التي سبق الحديث عنها، يدرك هذه المسالة بكل وضوح، أما السبيل الثاني- فهو الذي لاحظناه لدى الذين أوصوا أبناءهم، ويمتاز هذا بأن الموصي يختم وصيته بأبيات من الشعر كما فعل ذو الإصبع العدواني في وصيته لابنه أسيد؛ فقد أجمعت الروايات على أنه أنشد قصيدته المعروفة التي يبين فيها ما ينبغي لابنه السير عليه في حياته، عقب انتهائه من الوصية مباشرة، وقد جاء في أولها:(٤)

أأسيد إن مالا ملكـــــــــت *** ـــــت فسر به سيرا جميلا

وبهذا يتبين للبحث- من خلال النصوص التي بأيدينا- أن حكام العرب قد عمدوا في خواتيم وصاياهم لأبنائهم إلى إيراد شيء من الشعر يكون بمثابة النهاية لتلك الوصية، بينما رأيناهم ينهون وصاياهم الموجهة إلى الجماعة دون إشارة تفيد بانتهاء تلك الوصية.

---

١- المصدر السابق: ٣٢٧/١.

٢- السابق: ٣٢٧/١.

٣- الأصفهاني، الأغاني:٩٥/٣.

٤- الأصفهاني، الأغاني:٩٥/٣-٩٧.

ثانيًا- الحِكَم: الحكمة صوت العقل لأن الحكمة قول موجز يقوم علي فكرة سديدة وتكون بعد تأمل وموازنة بين الامور واستخلاص العبرة منها ولذلك فهي تعبر عن الرأي والعقل. تتسم الحكم بأنها صياغة نثرية للتجارب الإنسانية الخاصة، وهي تعبر عن فلسفة من يطلقها، وتأتي أهميتها من حيث إنها توفر على اللاحق خوض التجربة التي مر بها السابق، وتختصر الزمان الطويل من حياة المرء في عبارة قصيرة موجزة ومركزة، سهلة الحفظ والتداول؛ ولذا فهي خالدة تنتقل عبر الأجيال، وهي قديمة قدم العقل المفكر لدى الإنسان؛ مما يعني تراكمها المستمر جيلًا بعد جيل.

وقد جاء في معنى (الحكيم) رأي علماء اللغة في أنه ذو الحكمة، وتدل تعريفاتهم للحكمة على أنها التبصر بالأمور، واستقراء الحوادث ودراستها لاستخراج التجارب منها، والحكم بموجبها[١]؛ ولهذا فقد نسبت الحكمة إلى المجربين المحنكين الذين عرف عنهم الذكاء وقوة الملاحظة، كما أن الحكم تنسب- في العادة- إلى ذوي الأسنان والمعمرين لما في ذلك من أثر في ازدياد التجربة، وتنوع الخبرة في الحياة، بعدما يكون العقل قد نضج، واكتمل بتكامل العمر، وتقدم الإنسان في السن، واشتهر العرب بالحكمة؛ فقد روي أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال لكعب الأحبار، وقد ذُكر الشعر: "يا كعب، هل تجد للشعراء ذكرًا في التوراة؟ فقال كعب: أجد في التوراة قومًا من ولد إسماعيل أناجيلهم في صدورهم، ينطقون بالحكمة، ويضربون الأمثال، لا تعلمهم إلا العرب"[٢].

كما أن ما أوردته بعض المصادر حول حكمة لقمان- عليه السلام- واعتناء العرب بها، يدل بوضوح على امتلاك العرب الحكمة، واعتنائهم بها وبأصحابها، وقد تميز كثير من حكام العرب بحكمتهم، إلى الحد الذي جعل الناس يخلطون بين الحكمة

---

١- لسان العرب: (مادة حكم)، ٢٧٢/١.

٢- ابن رشيق، العمدة: ص١٦، وكعب الأحبار: هو كعب بن مانع بن ذي هجن الحميري، تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر- رضي الله عنه- وقدم المدينة في خلافة عمر- رضي الله عنه- فأخذ عنه الصحابة كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة، انظر: (الأعلام): ٢٢٨/٥.

والحكيم عند حديثهم عن الحكام؛ "فيجعلون (حكام العرب) من (حكماء العرب)، ويذكرون أحكامهم في باب الحكم، وقد كان العبرانيون، وبقية الساميين يجعلون الحكام من طبقة الحكماء؛ لأن الحاكم لا بد أن يكون حكيمًا؛ أي: مدركًا فطنًا نافذًا إلى بواطن الأمور؛ ولهذا نجد ارتباطًا كبيرًا في المعنى بين لفظتي حاكم وحكيم"(١)؛ ولذا فإننا نجد في آثار هؤلاء الحكام كثيرًا من الحكم التي تناقلتها المصادر المختلفة عن الحكام الذين اشتهروا بالحكمة؛ من مثل: أكثم بن صيفي، وسويد بن الصامت، وذي الإصبع العدواني، والأفعى الجرهمي، وأمية بن أبى الصلت، وقس بن ساعدة، والزبير بن عبد المطلب، وضمرة بن ضمرة، وغيلان بن سلمة، وأبي سفيان بن حرب، وهند بنت الخس، وخصيلة بنت عامر بن الظرب، وصحر بنت لقمان.

فمن ذلك ما جاء على لسان قس بن ساعدة: "إن المعي تكفيه البقلة، وترويه المذقة، ومن عيرك شيئًا ففيه مثله، ومن ظلمك وجد من يظلمه، وإن عدلت على نفسك عدل عليك مَنْ فوقك، وإذا نهيت عن الشيء فابدأ، وإذا خاصمت فاعدل، وإذا قلت فاقتصد، ولا تستودعن سرك أحدًا؛ فإنك إن فعلت لم تزل وجلًا، وكان بالخيار إن جني عليك كنت أهلا لذلك، وإن وفي لك كان الممدوح دونك"(٢)، ومن حكم قس بن ساعدة أيضًا أن قيصر ملك الروم سأله- وكان قس ممن يفد عليه-: "ما أفضل العقل؟ قال: معرفة المرء بنفسه، قال: فما أفضل العلم؟ قال: وقوف المرء عند علمه، قال: فما أفضل المروءة؟ قال: استبقاء الرجل ماء وجهه، قال: فما أفضل المال؟ قال: ما قضى به الحقوق"(٣).

وممن عرف بالحكمة من حكام العرب عامر بن الظرب العدواني، وهو الذي قيل فيه: إنه حكيم العرب الذي لم تكن تعدل بفهمه فهمًا، ولا بحكمه حكمًا(٤)، وتدور

---

١ – لسان العرب : مادة (حكم)، ٢٧٢/١. وتاج العروس : مادة (حكم) ٢٥٣/١.

٢- العسكري، جمهرة الأمثال:٢٤٩/١.

٣- ابن عبد ربه، العقد الفريد: ١٠٥/٢، وكذلك القالي، الأمالي: ٣٧/٢، وكذا، أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب:٣٩/١.

٤- انظر: الميداني، مجمع الأمثال:٥٨/١.

معظم أقواله في الحكمة حول علاقات الناس بعضهم ببعض، وما يجب أن يسودها من قيم الخير والتسامح والتآلف، ومن ذلك قوله يخاطب قومه: "يا معشر عدوان، إن الخير ألوف عزوف، ولن يفارق صاحبه حتّى يفارقه صاحبه، وإني لم أكن حكيمًا حتّى اتّبعت الحكماء، ولم أكن سيّدكم حتى تعبّدت لكم"(١)، ومن أقوال عامر بن الظرب في وجوب التأني في الرأي، وعدم التسرع قوله: "دعوا الرأي يغب حتى يختمر، وإياكم والرأي الفطير"(٢).

ومن الحكم المأثورة عن أكثم بن صيفي أنه جمع أبناءه يومًا، وقال لهم: "تباروا فإن البر يبقى عليه العدد، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه، إن قول الحق لم يدع لي صديقًا، الصدق منجاة، لا ينفع التوقي مما هو واقع، في طلب المعالي يكون العناء، الاقتصاد في كلمة (خلسة) في رواية العسكري بالتاء المعجمة، وتبعه على ذلك أحمد زكي صفوت، وقد أتت (خلسه)، وهو تصحيف ظاهر، ومعني الصيعان: جمع (صاع)، وهو مكيال يُكَال به، ومعني المسحول: مأخوذ من قولهم: سحل الثوب؛ أي: لم يبرم غزله، وداء عياء: لا يبرأ منه، والحلس: كساء يجعل على ظهر البعير تحت رحله، والمرأة الصخابة: كثيرة اللغط والجلبة من الصخب، السعي أبقى للجمام، من لم يأس على ما فاته ودع بدنه، ومن قنع بما هو فيه قرت عينه، التقدم قبل التندم، أصبح عند رأس الأمر أحب إلي من أن أصبح عند ذنبه، لم يهلك من مالك ما وعظك، ويل لعالم أمر من جاهله، يتشابه الأمر إذا أقبل، وإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق، البطر عند الرخاء حمق، والعجز عند البلاء أَفَنٌ، لا تغضبوا من اليسير فإنه يجني الكثير، لا تجيبوا فيما لا تسالون عنه، ولا تضحكوا مما لا يضحك منه، تناءوا في الديار ولا تباغضوا؛ فإنه من يجتمع يقعقع عنده، الزموا النساء المهابة، نعم لهو الحرة المغزل، حيلة من لا حيلة له الصبر، إن تعشْ تَرَ ما لم تَرَهُ، المكثار كحاطب ليل، من أكثر أسقط، لا تجعلوا سيرًا إلى أمة"(٣)، ومن أقوال

---

١- القالي، الأمالي: ١٥٧/٢.

٢- ابن عبد ربه، العقد الفريد:٥٥/١، ومعني الفطير: المتعجل.

٣- الميداني، مجمع الأمثال:٣١٠/٢، وكذلك، الألوسي، بلوغ الأرب: ٣١٠/١ و٣١١.

أكثم في الحكمة أيضًا: "فضل القول على القيل دناءة، وفضل الفعل على القول مكرمة"(١)، ومنه أيضًا: "فرط الانبساط مكسبة لقرناء السوء، وفرط الانقباض مكسبة للعداوة"(٢)، ومنه كذلك: "الوقوف عند الشبهة خير من التمادي واقتحام المهلكة"(٣)، وكذلك: "مع كل حبرة عبرة، ومع كل فرحة ترحه"(٤)، وكذلك: "من صحب الزمان رأى الهوان"(٥)، وكذلك: "أحق من شركك في النعم شركاؤك في المكاره"(٦)، وكذلك: "من لا حاك فقد عاداك"(٧).

ومنها أيضًا: "إنما أنتم أخبار فطيبوا أخباركم"(٨).

الخصائص الأسلوبية للحكم: تعبر الحكم عن خلاصة تجربة صاحبها في الحياة؛ إذ يحاول الحكيم تركيز التجارب والخبرات التي مَرَّ بها في أقوال موجزة، ينفذ من خلالها إلى جوهر الأشياء، وحقائق النفس البشرية، كما تعبر الحِكَمُ- في جانبها الأخلاقي- عن فلسفة الخير في مواجهة أعمال الشر ؛ لذا أُطْلِقَتْ على تعاليم الأنبياء والمرسلين، وعلى الكتب السماوية التي نزلت عليهم، كما وضح لنا عند تعريف الحكمة.

وحتى يتيسرَ لِمَنْ سمع هذه الحِكَمُ حفظُهَا، ومن ثَمَّ الإفادةُ منها في شئون الحياة العملية والروحية تجدها قائمةً على أسلوب (الإيجاز) القائم على التركيز والتكثيف الشديدين؛ أي: تجد الألفاظ القليلة قد احتوت على الكثير من المعاني والدلالات، وصياغةُ الحِكَمِ تقوم على الدقة

---

١- الميداني، مجمع الأمثال: ٢ /٩١، وكذلك، الأندلسي، نشوة الطرب: ٤٢٤/١.

٢- المصدر السابق: ٤٢٤/١.

٣- السابق:٤٢٤/١.

٤- السابق نفسه: ٤٢٤/١.

٥- الأندلسي، نشوة الطرب: ٤٢٤/١.

٦- المصدر السابق: ٤٢٤/١.

٧- الميداني، مجمع الأمثال: ٣٦٦/٢. (١٩) ابن عبد ربه، العقد الفريد: ١٧٣/١.

٨- الأندلسي، نشوة الطرب: ٤٢٤/١.

والإحكام، كما تتميز بقوة البيان والوضوح، وكثـــرة أدوات التوكيـــد، وخصوصًا التوكيد عن طريق أسلوب القصر بالنفي والاستثناء، كما يكـــثر فى الحِكَـــمِ استخـــدامُ أسلوب الشرط.

وكثـــيرًا مـــا تعتمـــد الحِكَـــمُ- في صياغتها- على جمـــال التصوير، وبخاصة الاعتماد على التشبيـــه التمثيلى، وهكذا تجـــدُ قائـــلَ الحكمة يوفِّـــرُ لها من دقة الصياغة، ومن جمال الأسلوب، ومن العناية بالألفاظ المشحونة بالخبرات والتجارب الإنسانية ما يضمنُ لهـــا التأثـــير والخلـــودَ على مَـــرِّ الأزمان، وتتابـــع الأجيـــال.

ثالثًا- الأمثال: المثل فهو قول يشبه مضربه بمورده فهو يقصد به تشبيه الحال التي حكي فيها بالحال التي قيل بسببها، ولذلك يحكى المثل بلفظه كما هو بدون تغيير مهما كان نوع الخطاب أو نسق الكلام. وتعد الأمثال من الأنواع النثرية التي تركز فيها التجارب الإنسانية- في لحظة من لحظاتها الحاسمة- على لسان بعض الناس في عبارة موجزة خفيفة على اللسان، جميلة الوقع في النفس، يمكن أن يستشهد بها ثانية بألفاظها حين تتشابه ظروف تجربة جديدة مع التجربة القديمة التي قيلت فيها[١]، ويرتبط المثل- عادة- بقصة أدت إلى وجوده؛ ولذلك فهو ليس أمرًا عقليًّا مدركًا بشكل مباشر، أو قاعدة سلوكية واضحة؛ ولهذا فإن عبارته تصبح غير مفهومة تمامًا وبيسر في عصر لاحق، أو بيئة أخرى إن لم تفسر رموزها، أو لم ترو قصتها الأصلية؛ مما يجعل المثل أكثر خصوصية وتجسيدًا من الحكمة التي تفهم بذاتها، وتكون أكثر تعميمًا وتجريدًا، ومن هنا ينشأ التباين والاختلاف بين المثل والحكمة[٢].

والأمثال صورة لثقافة الأمم والشعوب، وفلسفتها ونظرتها إلى الحياة، ومذاهبها في الأخلاق الفردية، والعلاقات الاجتماعية، كما أنها تكشف عن جوانب شتى من حياتها اليومية، وكثير من عاداتها ومعتقداتها، وهي بهذا تمتاز عن سائر الفنون الأدبية التي ليس بمقدورها استيعاب مثل هذه الأمور استيعاب الأمثال لها،

---

١- يُنظر: محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية: ص٨٥.

٢- يُنظر: المرجع السابق: ص٨٥.

وتحتل الأمثال مكانة كبيرة في نفوس الناس على اختلاف ثقافاتهم؛ وذلك لما تتضمنه من أحكام يرتضونها ويذعنون لها لدرجة أنهم يستشهدون بها في المواقف اليومية من حياتهم، وقد اهتم بها العرب لما عرفوه من مزاياها؛ فاستكثروا منها في كلامهم المنظوم والمنثور؛ إذ يقول الجاحظ: "وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف؛ فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعًا ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع، ومدار العلم على الشاهد والمثل"(١).

إن ما تمتاز به الأمثال من بلاغة وإيجاز قد جعلها سهلة الحفظ والانتشار بين الناس، كما أنها تكسو الكلام روعة وبهاء، وتكسبه الفخامة والقبول، وتجعله يصافح السمع، ويلامس القلب، ويقع من النفس أكرم موقع، وقد فطن إلى هذا علماء البلاغة؛ حيث يقول أبو هلال العسكري في شأن المثل: "ثم إني ما رأيت حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن، كحاجته إلى الشاهد والمثل، والشذرة والكلمة السائرة؛ فإن ذلك يزيد المنطق تفخيمًا، ويكسبه قبولاً، ويجعل له قدرًا في النفوس، وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، وإنما هو في الكلام كالتفصيل في العقد، والتنوير في الروض، والتسهيم في البرد؛ فينبغي أن يستكثر من أنواعه"(٢)، ويقول ابن المقفع: "إذا جُعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث"(٣)، أما إبراهيم النظام فيقول: "يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية؛ فهو نهاية البلاغة"(٤).

ولما كان حكام العرب من طبقة الفصحاء والبلغاء؛ فليس من المستغرب أن تصدر عنهم الأمثال التي تعالج مختلف قضايا ذلك العصر، وتعكس ثقافته وعاداته

---

١- الجاحظ، البيان والتبيين: ١٨٠/٢.

٢- العسكري، جمهرة الأمثال: ٤/١، والتفصيل في العقد: أن يجعل بين كل لؤلؤتين خرزة، والتسهيم؛ من قولهم: برد مسهم؛ أي: مخطط.

٣- الميداني، مجمع الأمثال: ١٨/١.

٤- المصدر السابق: ١٨/١.

وتوجهاته، وقد نبغ في هذا المجال عدد من الحكام يعد أكثم بن صيفي أبرزهم على الإطلاق؛ وذلك لكثرة ما روي عنه من أمثال نقلتها إلينا الكتب التي عنيت بهذا الأمر؛ إذ لا يكاد كتاب منها يخلو من عدد كبير من أمثاله، وقد لا أبالغ حين أقول: إن أكثم هو من أكثر من ضرب الأمثال من بين شخصيات العصر الجاهلي؛ وذلك لما امتاز به من فصاحة وحكمة وتجربة، وهناك عدد آخر من الحكام الذين رويت عنهم الأمثال كعامر بن الظرب، وعلقمة بن علاثة، وهند بنت الخس، والأفعى الجرهمي، وقس بن ساعدة الإيادي، وضمرة بن ضمرة، وغيرهم، وسوف أورد فيما يأتي طائفة من أمثال هؤلاء الحكام؛ من أمثال: أكثم بن صيفي المتعلقة بأخلاق الفرد وسلوكياته، والخصال التي ينبغي عليه التحلي بها: "المزاحة تذهب المهابة"[١]، "الحسد داء ليس له دواء"[٢]، "كثير النصح يهجم على كثير الظنة"[٣]، "من جعل لنفسه من حسن الظن بإخوانه نصيبًا أراح قلبه"[٤].

ومن ذلك- أيضًا- قوله: "من لا حاك فقد عاداك"[٥]، "من مأمنه يؤتي الحذر"[٦]، "غثك خير من سمين غيرك"[٧]، "لا تنطح جماء ذات قرن"[٨]، "قد يبلغ الخضم بالقضم"[٩]، "الحر عزوف"[١٠]، "لا تطمع في كل ما تسمع"[١١]، أما أمثاله

---

١- الميداني، مجمع الأمثال: ٣٣٧/٢.
٢- المصدر السابق: ٢١٣/٢.
٣- الميداني، مجمع الأمثال: ٣٧٣/٢.
٤- العسكري، جمهرة الأمثال: ١٦١/٢.
٥- الميداني، مجمع الأمثال: ٣٧٣/٢.
٦- العسكري، جمهرة الأمثال: ١١٩/٢.
٧- المصدر السابق: ٩٢/٢.
٨- السابق: ٩٢/٢.
٩- السابق نفسه: ٩٢/٢.
١٠- العسكري، جمهرة الأمثال: ٩٢/٢.
١١- المصدر السابق: ٩٢/٢.

المتعلقة بالجماعة وعلاقاتها؛ فمنها: "أول الحزم المشورة"[١]، "العزيمة حزم، والاختلاط ضعف"[٢]، "لا تفرقوا في القبائل فإن الغريب بكل مكان مظلوم"[٣]، "من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء"[٤]، "رضا الناس غاية لا تبلغ"[٥]، "فسولة الوزراء أضر من بعض الأعداء"[٦]، "في الجريرة تشترك العشيرة"[٧]، "متى تعالج مال غيرك تسام"[٨]، "قد صدع الفراق بين الرفاق"[٩]، "استأنوا أخاكم؛ فإن مع اليوم غدا"[١٠].

ومنها قولهم: "عش رجبًا تَرَ عجبًا"[١١]، وهذا المثل للحارث بن عباد؛ وذلك أنه طلق بعض نسائه من بعد ما أسن وخرف؛ فتزوجها رجل كانت تهواه؛ فلقي زوجها الحارث، وأخبره بمنزلته منها؛ فقال الحارث: "عش رجبًا تَرَ عجبًا؛ فأرسلها مثلاً[١٢].

ومن ذلك قولهم: "ما جُعِلَ العبدُ كَرَبِّهِ"[١٣]، وهذا المثل لربيعة بن حذار، وقد قاله في المنافرة بين القعقاع بن معبد بن زرارة، وخالد بن مالك بن ربعي النهشلي؛

---

١- الميداني، مجمع الأمثال:١/٧٤.
٢- المصدر السابق: ٢/٤١.
٣- العسكري، جمهرة الأمثال:١/٤٩٤.
٤- المصدر السابق: ١/٤٩٤.
٥- السابق:١/٤٩٣.
٦- السابق نفسه:١/٤٩٤.
٧- العسكري، جمهرة الأمثال: ٢/٩٢.
٨- المصدر السابق: ٢/٩٢.
٩- السابق: ٢/٩٢.
١٠- السابق نفسه: ٢/٩٢.
١١ - المرجع السابق: ٢/٥٢.
١٢ - الميداني، مجمع الأمثال: ٢ /١٩.
١٣ - المرجع السابق: ٢/٣١٨و٣١٩.

وذلك أنه نفر القعقاع فقال خالد: أتجعل معبد بن زرارة كمثل سلم بن جندل؟ فقال ربيعة بن حذار: ما جعل العبد كربه؛ فأرسلها مثلاً.

ومن ذلك قولهم: "فتى ولا كمالك"[١]، وهذا المثل لمتمم بن نويرة، وقد قاله في أخيه مالك، عندما قُتِلَ في حُرُوبِ الرِّدَّةِ؛ أي: لا يوجد فتي مثل مالك أخيه.

ومن ذلك قولهم: "كل شاة برجلها معلقة"[٢]، وهذا المثل هو أول من قاله وكيع بن سلمة الإيادي، وهو من خطبة له[٣].

ومن ذلك قولهم: "لا ناقتي فيها ولا جملي[٤]، وهذا المثل للحارث بن عباد، وقد قاله حين نشبت الحرب بين بكر وتغلب؛ وذلك بعدما قتل جساسٌ كليبًا، واعتزل الحارث الفريقين إلى أن قتل ابنه بجير[٥].

ومن أمثال عامر بن الظرب قوله حين خطبت إليه ابنته: "رب زارع لنفسه حاصد سواه"[٦].

ومن أمثال الأفعى الجرهمي قوله في قصة تحكيمه بين أبناء نزار[٧]: "إن العصا من العصية"[٨]، "إن خشينا[٩] من أخشن"[١٠]، "مساعدة الخاطل تعد من الباطل"[١١].

---

١- العسكري، جمهرة الأمثال: ٩١/٢.

٢- العسكري، جمهرة الأمثال:١٥٢/٢، والرواية فيه: "كل شاة تناط برجلها"، وهو من غير نسبة.

٣- يُنظر: هذه الخطبة في: الميداني، مجمع الأمثال: ٩١/٢.

٤- العسكري، جمهرة الأمثال: ٣٩١/٢.

٥- يُنظر: هذه القصة في ترجمة (الحارث بن عباد)، في : العقد الفريد، ابن عبد ربه ٧٦/٦ .

٦- الميداني، مجمع الأمثال:٣٨٤/١و٣٨٥.

٧- يُنظر: هذه القصة في ترجمة الأفعي، في: الميداني، مجمع الأمثال: ٣٨٤/١و٣٨٥.

٨- المصدر السابق:٣٨٤/١و٣٨٥.

٩- خشين وأخشن: جبلان أحدهما أصغر من الآخر.

١٠- الميداني، مجمع الأمثال:٣٨٤/١و٣٨٥.

١١- المصدر السابق:٣٨٤/١و٣٨٥.

الخصائص الأسلوبيـــة للأمثال: قال إبراهيم النَّظَّامُ: "يجتمـــع في المثـــل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجـــاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسْنُ التشبيه، وجـــودة الكناية؛ فهـــو نهايـــة البلاغـــة"(١)، فأما الإيجـــاز، ودقـــة المعنى؛ فهما قِـــوامُ المثـــل الذى ضربتْهُ العربُ؛ لتحفظَهُ الذاكرةُ، وتعِيَـــهُ أفهامُ العامة قبل الخاصة، وحتى يكسبَ صفةَ الانتشار والذيـــوع.

وما سُمِّيَ المثلُ قولاً سائِرًا إلاَّ لأنه يسير بين الناس، وتتناقلُهُ الأجيالُ، "والأمثالُ أكثرُ انتشارًا بينَ الأُمِّيِّينَ منها بين المثقفين الذين يتقنون القراءةَ والكتابـــةَ، والبيئاتُ التى تعتمـــد على الثقافة الشفوية تتداول الأمثالَ، وتحرِصُ على حِفْظِها، والاستشهادِ بهـــا أكـــثرُ من البيئات ذات الثقافة المكتوبـــة؛ ولـــذا يُعْتَبَرُ المثـــلُ نوعًا من الأدب الجماعى الذى يَحِلُّ بين جماعة الأميين مَحَلَّ الدستور أو القانون الذى يحكم المعاملات"(٢)، من هنـــا نجـــد أن الأمثـــال قـــد صيغتْ في عبارة موجزة ، محكمة غايـــة الإحكام؛ فهى تتخلى عن الحَشْـــوِ الفارغ، والعناصر الثانويـــة، وتكتفى بأركان الكـــلام؛ حتى تؤدِىَ دورَهَا على الوجـــهِ الأكمـــلِ.

وهـــى تتركُ آثارَهَا فى عقل السامع ووجدانه دون إعاقة تنتج عن تعقـــيد الفكرة، أو مللٍ يسببه التطويل، "ولمَّا عرفتِ العربُ أن الأمثالَ تتصرف فى أكـــثر وجـــوه الكلام، وتدخل فى جُـــلِّ أساليب القول أخرجوها فى أقواها من الألفاظ؛ ليَخِفَّ استعمالها، ويسهل تداولها؛ فهى من أَجَلِّ الكلام وأَنْبَلِهِ، وأشرفِهِ وأفضلِهِ؛ لقلة ألفاظها، وكثـــرة معانيها، ويَسِـــيرِ مؤنتها على المتكلم، مع كبـــير عنايتها، وجسيم عائداتها، ومن عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عملَ الإطناب، ولها روعةٌ إذا برزت في أثناء الخطاب، والحِفْظُ مُوْكَلٌ بما رَاعَ من اللفـــظِ، ونَـــدُرَ من المعنـــى"(٣).

---

١- السابق:١/٦.

٢- د. إبراهيم أحمد شعلان، الشعـــب المصرى فى أمثـــاله العامية: ص ٢٨ و٢٩ .

٣- الميداني، جمهـــرة الأمثـــال:١/٤و٥.

وأما حُسْنُ التشبيهِ، وجودةُ الكِنَايَةِ؛ فمدارُ الأمثال عليهما؛ فما المثلُ- فى واقع الأمر- إلَّا تمثيل وتشبيه، ولا يقصد ضاربُهُ المعنى الظاهرَ للعبارة؛ بل يغوص وراء معناه الكنائى البعيد الذى تكشفه القرائن والأدلة، ولا يستحضر الذهنُ الصورةَ الماضيةَ، والموقفَ السالفَ إلا من أجلِ علاقة المشابهة بين تلك الصورة وذلك الموقف، وبين هذه الصورة القائمة وهذا الموقف الحاضر، والغَرَضُ من هذا كُلِّهِ هو إبرازُ جوانبِ العِظَةِ والاعتبارِ فى تجاربِ الماضيين وخبراتهم؛ وذلك من أجلِ الإفادة منها فى تجلية المواقف الحالية الحاضرة التى يكتنفها جَوٌّ من الغموض والإبهام.

الخاتمة

وفي نهاية هذه الدراسة قد تبينت للباحثة جملة أمور يمكن إيرادها في النقاط الآتية:

١- لقد شاع (التحكيم) في حياة المجتمع فيما قبل الإسلام، واتخذه الناس وسيلة لفض ما يقع بينهم من نزاع وخصومة؛ حتى غدا موضع إجماعهم، واحترامهم، وغدت أحكام الحكام بمثابة الدستور الذي يضبط أمور الحياة آنذاك.

٢- حظى الحكام بمكانة اجتماعية مرموقة؛ فكان من بينهم السادة والرؤساء والزعماء الذين نالوا الكثير من الاحترام والتوقير والمهابة التي وصلوا إليها .

٣- لقد تبين من خلال البحث أن العرب في الجاهلية كانوا على قدر كبير من الوعي والانضباط الاجتماعي الأخلاقي؛ فقد اهتموا بمكارم الأخلاق، وحضوا على التحلي بها، ولهذا تميزت أحكامهم بمراعاة القيم الأخلاقية، ومما يعزز هذا الرأي قول النبي- صل الله عليه وسلم-: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، الأمر الذي يعنى بكل وضوح أن العرب كانوا على درجة متقدمة من مكارم الأخلاق، ولم يكونوا أمة من السفلة والرعاع كما صورهم البعض.

٤- إن كثيرًا من الأحكام التي أصدرها الحكام العرب أقرتها الشريعة الإسلامية فيما بعد نزول القرآن الكريم؛ لأنها تراعي الحق والمنطق والصواب والعقل؛ ولذا فقد

أقر الإسلام كثيرًا من أحكامهم؛ ومنها: قطع يد السارق، والقسامة، وتحريم القمار، وخلع النعل عند دخول المسجد، وتوريث البنات بعدما كانت العرب تورث البنين دونهن، وإعطاء الذكر مثل حظ الأنثيين في الميراث، وحكمهم في ولد الزنا الذي قضوا بأنه للفراش، وميراث الخنثى، وكثير من شعائر الحج.

٥- تميز عدد كبير من الحكام في فنون الخطابة والوصايا والحكم والأمثال والمنافرات؛ ولذا فقد اهتمت الكتب التي تناولت هذه المواضيع بإيراد أثارهم النثرية؛ والاستشهاد بها في المواضع المختلفة.

٦- نظم الحكام مجموعة من الخطب التي اعتمدوها وسيلة في حياتهم؛ من مثل: التهنئة، والتعزية، والنصح والإرشاد، والحث على قتال الأعداء، وفي الدعوة إلى السلم، وحقن الدماء.

٧- ونظم الحكام قواعد الحكم فيما يرد إليهم من المنافرات، وهذه القواعد تهدف إلى منع الشر بالامتناع عن التحكيم بين المتنافرين في أكثر الأحوال، ومحاولة الإصلاح بين المتنازعين قدر الإمكان منعًا للشر، وحقنًا للدماء.

٨- وكذلك أطلق الحكام مجموعة من الوصايا، وكانوا يوجهونها إما إلى القبيلة كلها، وإما إلى أبناء الموصي، أو إلى أحدهم، واعتمد الحكام في الوصايا على وحدة القبيلة؛ وصيانة الشرف، والدعوة إلى الشجاعة، والحلم، والتسامح، والعفو.

٩- وقد ساق الحكام كثيرًا من الحكم والأمثال في شتي أمور حياتهم؛ فاشتهر العرب بالحكمة في كثير من أقوالهم، وكانت الحكمة زادهم في هذه الحياة الشاقة فيما قبل الإسلام .

١٠- امتازت لغة الحكام بالسهولة، والوضوح، والفصاحة؛ فلم يستخدموا مفردات غريبة في كلامهم المنثور، كما امتازت أساليبهم بالعفوية والتلقائية، والبعد عن التكلف والتصنع.

## اولًا: المصادر

١-العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله(ت٣٩٥هـ)، جمهرة الأمثال: تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر- بيروت١٩٨٨م.

٢-ابن عبد ربه، أحمد بن محمد(ت٣٢٨هـ)، العقد الفريد: تحقيق/ محمد عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية- بيروت١٩٩٩م.

٣-الأصفهاني، أبو الفرج على بن الحسين(ت٣٥٦ه)، الأغاني: ، دار الفكر- بيروت(د.ت).

٤- الجاحظ، عمرو بن بحر(ت٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق/ عبد السلام هارون، دار الفكر- بيروت(د.ت).

٥- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن(ت٤٧١هـ)، أسرار البلاغة: تحقيق/ محمد بن عبد العزيز النجار، مكتبة محمد علي صبيح- القاهرة١٩٧٧م.

٦-ابن حزم، علي بن أحمد الأندلسي(ت٤٥٦هـ)، جمهرة أنساب العرب: دار الكتب العلمية- بيروت١٩٩٨م .

٧-ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي(ت٧١١هـ)، لسان العرب: دار إحياء التراث العربي- بيروت١٩٩٦م.

٨- القالي، أبو علي إسماعيل بن قاسم(ت٣٥٦هـ)، الأمالي: دار الكتب العلمية- بيروت١٩٩٥م .

٩-ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني(ت٤٥٦ه)، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده: تحقيق/ د.عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية- بيروت٢٠٠١م.

١٠-الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: دار الكتب العلمية- بيروت(د.ت).

ثانيًا- المراجع:

١-أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب: المكتبة العلمية- بيروت(د.ت).

٢-محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية: دار الفكر المعاصر- بيروت١٩٩٣م.

٣- د. جواد على، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جامعة بغداد- بغداد١٩٩٣م.

٤- د. سهام الفريح، الوصايا في الأدب العربي القديم: مكتبة المعلا- الكويت١٩٨٨م.